

الأدب في سبر أعماقه :

ملتن...

للاستاذ محمود الخفيف

- ٣٤ -

الردوس المفقود : مرفوع القصيدة الكبرى : -

في سنة ١٦٥٨ أخذ ملتن كما أسلفنا يتوفر على نظم قصيدته الكبرى ، ومن ثم تعد هذه السنة بدء هذا العمل العظيم وإن كانت أجزاء قليلة من القصيدة قد نظمت قبل ذلك كما يقول ابن أخته إدوارد فيلبس ، ولم تنته سنة ١٨٦٣ حتى فرغ الشاعر الضريع كما يقول إدوارد كذلك من هذه القصيدة العظيمة التي تبلغ زهاء خمسة آلاف وخمسمائة سطر ، والتي تستغرق نيفا وثلاثمائة صفحة متوسطة الحجم ، والتي تعد من أعظم الآثار الأدبية في أدب الدنيا قديمه وحديثه ، والتي يتبوأ بها ملتن مكانه بين أفاذا شعراء الملاحم الثلاثة : هوميروس ودانتي وفرجيل إن لم يبرعهم جميعاً في أكثر من ناحية من القول كما يذكر كثير من النقاد الملحوظي المكانة في نقد الأدب والشعر .

ويمكن تلخيص موضوع القصيدة في كلمات قليلة ؛ فهي قصة إبليس بعد أن فسق عن أمر ربه ، فقد تمرد هذا الشيطان الأكبر ومن اتبعه من الغاوين واجترأ على محاربة خالقه فأخذهم الله أخذاً قوياً فاذا بهم جميعاً في جهنم جيئاً ؛ ثم خلقت جنات عدن وخلق آدم وحواء ودلها الله على الشجرة المحرمة ونهاها

إلى عبادته وأمه « أنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله ؟ » هذا كثير ، ومدعاة إلى تأنيبهم ، أما القصر فلا يفيد التأنيب ، وهب عيسى عليه السلام لم يقل إلا جملة القصر أكان يستفاد منها التأنيب ؟ وبذلك تسقط دعواه أن التوهين والتأنيب غرضان من أغراض القصر ، ووقفنا عند الأغراض التي ذكرها المتقدمون ، ولا تزال في انتظار الجديد .

على العماري

المدرس بمعهد القاهرة الثانوي

رهبهما أن يقربا هذه الشجرة ، فوسوس لها الشيطان فأكلا منها وعصيا رهبهما فأخرجهما من الجنة .

وحق للمرء أن يعجب كيف يخلق الشاعر من هذه القصة على بساطتها قصيدة بلغت هذا الذي بلغت من الطول ، وما فيها منظر أوفسكرة مما يصح حذفه ، ثم ما فيها موضع تطرق إليه شيء من الضعف أو شيء مما يبعث السأم في نفس القارئ . بل إنها جميعاً تبلغ من السمو والقوة مدى يتخاذه لدونه جهد المبدعين ويتقاصر عنه افتنان الفتنة فما يقع المرء فيها إلا على ما يعجب ويغرب وما يشيع في النفس نشوة روحية قوية تشمرها بسر العبقرية وسلطانها وتذرها مسحورة مأخوذة حتى ينقضي هذا الحلم الجميل .

ولكن دواعي العجب لا تلبث أن تزول إذا ذكر المرء مبلغ ما أوتي الشاعر من خصوبة الخيال وقوته ، وما رزق من دقة الوصف وروعته ، وما وهب من قدرة على الابتكار والتفنن في خلق الصور الذهنية الأخاذة والتصرف في مذاهب البيان ، هذا إلى ما يشيعه في قصته من فلسفة وعلم ، وما يدخله بين الفينة والفينة من أساطير الأغريق وآلهتهم وسائر مخلوقاتهم مما يعلل قصيدته بألوان من السحر وأفانين من كل ما يفيد ويمتع .

والقصيدة ليست بنت هاتيك السنوات الخمس التي نظمتها فيها ، وإنما هي متجدة خياله وأرب نفسه منذ أول عهده بالشباب ، فقد كان أمله الذي ملأ خياله منذ حداثة أن ينظم قصيدة تجمل له ولأمته مكاناً علياً في أدب هذه الدنيا ؛ وإلى ذلك أشار في قصيدته التي ناجى فيها لمة قومه وهو في سن التاسعة عشرة كما سلف أن ذكرنا ذلك في موضعه ، وإن لم يك بين موضوع تلك القصيدة بعد .

ولم يتعجل ملتن النظم ، بل أخذ يتبأ لا يطمح إليه فينهل من المعرفة ما يسهل أن ينهل ، وفي نفسه أمل يلازمه ولا يبرح يذكره أنه سوف ينظم في يوم ما ملحمة كبرى تسلكه في الخالدين النابهين من شعراء الدنيا ، أما ماذا تدور عليه الملحمة فذلك أمر لم يتبينه يومئذ وحسبه أن يطلب لنفسه ما يوسع من زاد في الفلسفة والعلم .

وكان يفكر كما ذكرنا قبل في الملك آرثر وعصره وبطلوته وسيرته على يستخرج من ذلك ملحمة قومية كان يريد أن

يرسمها وبيان لما تكون عليه تلك الدراما وقد وضع لذلك عدة صور لعله كان بفاضل فيها ، ولا زالت تلك القائمة محفوظة كأثر من آثار الشاعر العظيم في مكتبة كلية ترينتي بجامعة كبروج . ويتبين من ذلك أن ملتن كان يومئذ يريد أن يلبس موضوعه لباس الدراما لا الملحمة ، ويؤيد هذا الرأي ما ذكره في هذا الصدد إدوارد فيليبس ، وذلك أن الأسطر التي يخاطب بها الشيطان الشمس في أوائل الكتاب الرابع من الملحمة قد نظمت قبل بدء الشاعر في نظم الملحمة بنحو خمسة عشر أو ستة عشر عاما وأنها نظمت لتكون في مستهل عرض لمأساة .

ثم انصرف ملتن كما رأينا عن الشعر وانشغل عن أميته الكبرى حتى كانت سنة ١٦٥٨ فتوفر على موضوعه ، فلما أتمه كان ملحمة تضاف إلى الملاحم الكبرى في أدب العالم وسميت الفردوس المفقود .

ونظمت الملحمة في ستة أقسام أو ستة كتب ، ولقد أوجزنا موضوعها في أول هذا الفصل فلتبسط هنا بعض البسط ، ولا نجد خيراً من أن نقص خلاصة هاتيك الكتب الستة التي تتألف منها القصة .

افتتح الشاعر الكتاب الأول بمناشدة إله الشعر أو إلهاته (١) العون فيما هو بسيله على عادة شعراء الملاحم عند بدء ملاحمهم ، ثم يعرض الشاعر الموضوع كله فيذكر أول عصيان للإنسان وما يترتب عليه من إخراجه من الجنة حيث كان موطنه ، ويشير إلى غواية الشيطان ، ويذكر عصيانه وتمرده على خالقه واستطاعة ضم أكثر من قبيل من الملائكة إليه ، حتى طرده الله من الجنة ومن اتبعه وألقى بهم في قرار من جهنم سحيق ، ثم يصف الشاعر كيف كان هذا المهبوط من الجنة حتى يرينا الشيطان ومن معه في قرار الجحيم ، في ظلمات بعضها فوق بعض ، ويظل هؤلاء على وجوههم وعلى جنوبهم في هذا المباءة زمناً يتقلبون في بحيرة هائلة تملأ بالحلم واللهب وفي نفوسهم رهبة ودهشة مما أخذهم من صاعقة ، ثم يفيق الشيطان بعد لحظة من هذه

يسمها الآثر بادا ، وتقع إشارتان منه إلى ذلك إحداها في قصيدة أخرى نظمها عقب عودته إلى وطنه ؛ والسكنه مالمبث أن طرح موضوع الملك آرثر جانباً ولم يعد إليه بعد ذلك .

وظل ملتن متعلقاً بأمله في نظم قصيدة كبرى ، وكان هذا التعلق المتصل بالأمل المنشود هو الفكرة التسلطة في حياته كلها من جميع أقطارها ولذلك لم يأل جهداً في الاستفادة مما حوله فكان انقطاعه للدراسة في هورتون ، وكانت رحلته إلى إيطاليا وكان منصبه في الدولة وكانت كتاباته الدينية والسياسية ، كل أولئك كان جوانب لدراسته وموارد لثقافته قصد إلى ذلك أم لم يقصد إليه .

وانقطعت صلته بالشعر زهاء عشرين عاماً إلا ما كان من مقطوعاته ، ولكن خيال القصيدة الكبرى لم يبارحه قط ، وليس أدل من ذلك على شدة إيمانه بأنه خلق لرسالة في الشعر وعلى عظم إخلاصه لفنّه ، ولقد رأينا ما أحاط به من المحن والكوارث فلم يصرفه ذلك عما خصص له حياته ، وإن واحدة منها لكفيلة بأن تقعد بالمرء عما يخف كثيراً عن ذلك الذي اضطلع به من عبء .

وربما كان خيراً له وللأدب أنه لم ينظم ملحمة الكبرى إلا بعد أن بلغ الخمسين من عمره فلملنا كنا لو نظمها في صدر شبابه لانظر منه بما ظفرنا به من آثار خبرته بالحياة والناس وطول بابه في البيان وضلّاعته في المعرفة وانصقال نفسه وما اكتسب شعره من حقوة وقوة . ولقد حال بينه وبين تحقيق أمله في شبابه ورغبته كما رأينا في الاستزادة من الثقافة استزادة تكافؤ ما يطعم أن ينهض به من عمل ضخم في دنيا الفن ، ثم حيرته في اختيار الموضوع الذي تدور حوله قصيدته ، وجاءت بعد ذلك حربه على القساوسة ثم اشتغاله بالسياسة فأخرته على رغم تلك السنوات الطويلة .

ولقد تم قبل تلك الشواغل سنة ١٦٤١ بالهوض بما منته نفسه به ، إذ أنه يتبين من قائمة كتبها الشاعر بين سنتي ١٦٤٠ ، ١٦٤٢ أنه فكر فيما يقرب من مائة موضوع ، وكان ثلثا هاتيك الموضوعات مقتبساً من الإنجيل ، وكان همه متجهاً إلى واحد من بينها سماه تارة « الفردوس المفقود » وتارة « آدم يخرج من الجنة » فقد وجد في هذه القائمة بيان بأسماء شخصيات لدراما

(١) Muse ، وكانت عند الأفريق تطلق على بنات زيوس التسع ملهمات الشعر والموسيقى ، وفي ملحمتي هوميروس كان يقصد بها إله الشعر الذي يوحى إلى الشعراء ما ليس لهم به علم ؛ أما اليهود والمسيحيون فأحلوا روح القدس محل ذلك ، ويجمع ملتن بين الاثنين فبعد أن خاطب الموز عاد يخاطب روح القدس :

كل إلى حيث يقضى الوقت ربنا يعود كبيرهم من رحلته
ويطير الشيطان الأكبر فيقطع في رحلته أرجاء الجحيم حتى
يأتى أبوابها فإذا هي مغلقة وعلى كل باب ثلاث طبقات من الحديد
وثلاث من النحاس وثلاث من الحجر الصلب ، وتحرس هذه
الأبواب أنماط من الحرس هي في أشكالها أليق ما تكون بحراسة
أبواب الجحيم ، لا هي من الجن ولا من الوحش ولا من الأفاعى
وإنما هي مزيج من هذا كله ركب بعضه في بعض ، وهى أشباح
للخوف والوباء والموت ، ويزجر الخوف الشيطان ويأمره أن يعود
إلى مكانه في النار ، ولكنه لن يزال يطالب أن يفتح له باب حتى
يفتح له الموت باباً فيلج منه إلى خارج الجحيم في عسر شديد ،
ويرى مدى ما بين الجنة وجنهم من أمد ، وما يزال الشيطان يسبح
بأجنحته في الماء في غناء وعسر حتى يصبح يمرأى من الدنيا
الجديدة فتقع عليها عيناه .

الحفيف

(يتبع)

الناشئة فينادى أقرب أتباعه منه منزلة وأولهم بعده مكانة وهو
يصلى النار الحامية إلى جواره ويتحاورون فيما أصابهم من هذا
المحبوط ؛ ويتكلم الشيطان الأكبر في الآباء والعناد والأصرار
قائلاً إنه خير له أن يحكم في النار من أن يخدم ويطيع في الجنة ؛
ثم يدعو الشيطان أتباعه ولم يزالوا مكبيين في النار على وجوههم
فيهبضون فيسوى صفوفهم ويعدو للقتال ويختار من بينهم قادتهم
وكبراءهم ثم يناديهم فيقدم ويتنهم باسترجاع مكانهم في الجنة
وينبشهم بدنيا جديدة مخلق ويوع جديد من المخلوقات يدب فيها
وكل أولئك يجيئون وفق نبوءة أو نبأ تراهي إليه وهو في الجنة
ولكى يعلم مبلغ ما تحقق من هذه النبوءة وماذا يكون موقفهم
من هذه الدنيا يشير إلى مجلس ينتظمهم جميعاً حيث ينظرون
ماذا يفعلون ! ثم يشير الشاعر إلى مأوى الشياطين أو قصر الشيطان
الأكبر وقد استوى قائماً منبعثاً من أعماق الماء وهناك يجلس
كبار شياطين الجحيم ليوفاهم أتباعهم ليتشاوروا فيما بينهم كما
أراد كبير الشياطين أجمعين ؛ وتزاحم الشياطين على قصر رئيسهم
وقد مدوا في اللهب أجنحتهم وملأوا الجحيم حفيفاً بهذه
الأجنحة الممتدة ، ثم يتساقطون جماعات جماعات حتى يضيق بهم
القصر على سمته .

وفي الكتاب الثانى تبدأ المشاورة فيجلس الشيطان الأكبر
على عرش هائل ويتحدث إلى أتباعه متسائلاً هل هو خير لهم أن
يشنوا معركة أخرى لاسترجاع الجنة التى أخرجوا منها ويدعو
كل من يحسن الرأى أن يتكلم بما يرى .

ويتتابع عدد من الشياطين كل يدلى برأيه ويبسط حجته ،
فكانوا فريقين ، فريق رآه الحرب وآخر يخشى عاقبتها ولا ينصح
بها ، والشيطان الأكبر يوازن بين حجج كل فريق ولكنه
لا يقطع أمراً ، حتى ينبعث صوت بمقترح مؤداً أن يدعو الحرب
إلى أمر آخر هو النظر في مبلغ صحة تلك النبوءة أو الرواية التى
علمت في الجنة عن خلق دنيا جديدة ، ونوع آخر من المخلوقات
يساوى الملائكة منزلة أو هو لا ينزل كثيراً عن مستوهم وهذا
هو وقت خلقهم ، وتنتج أفئدة الجميع إلى هذا المقترح وسرعان
ما يجتمعون عليه ، ولكنهم يحارون منذاً يذهب في تلك الرحلة
العظيمة المسيرة فيستطلع لهم ما يريدون ؛ ولا تطول حيرتهم فهذا
كبيرهم يملن أنه يذهب وحده فيأتيهم بنبايقين ، ويعجده الشياطين
شاكرين له هاتين به ؛ ويتنفض عن شياطينه المجلس فيذهب .

هل قرأت كتاب :

تطور الكتابة العربية

لؤلفه الأستاذ السعيد الشرباصى

من علماء الأزهر الشريف ؟

إنه أول بحث من نوعه في المكتبة العربية ، يستعرض
أدوار الكتابة ، ويبين أسباب الخطأ في القراءة ، والوسائل
المساعدة لتحسينها وإجادتها ، ويقترح طريقة تبسيطها .
وإليك بعض بحوثه : أصل الخط العربى ، أسباب
الخطأ في القراءة ، الحالة النفسية للقارىء . الموامل المساعدة :
اتخاذ قاموس موحد ، إصلاح الهجاء ، رسم المصحف
الكريم ، فلسفة الخط... الخ . مما كتب للخاصة والمتفنيين ،
ولم يكتب للعامة والجاهلير ، في لغة رائمة نقلت لغة العلم
والبحث إلى لغة الفن والأدب .

ويطلب الكتاب من جميع المكاتب العامة بأنحاء
الشرق ، أو من المؤلف بتخصص التدريس . كلية اللغة
العربية . القاهرة . وثمن النسخة ١٠ قروش وللبريد قرشان
وفي الأقطار الشقيقة عشرون قرشاً خالصة البريد